

ديداكتيك التدريس وديداكتيك اللغة من منظور فلسفي معاصر عابر للتخصصات

المقاربة الظاهرية والتأويلية وما بعد الحداثية أمودجا

Dialectic of Teaching vs. Didactics of Language: A Contemporary, Interdisciplinary Philosophical Approach (Phenomenological, Hermeneutic, and Postmodern Perspectives as a Model)

ناصر الدين بوجاوي¹*¹ جامعة مولود معمري/ تيزي وزو (الجزائر)، nacer-eddine.boudjaoui@ummto.dz

تاريخ القبول: 2025/09/09

تاريخ الإرسال: 2025/08/10

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف دور المقاربات الفلسفية المعاصرة (الظاهرية، التأويلية، ما بعد الحداثة) في إعادة صياغة العملية التعليمية، لا سيما في مجال ديداكتيك اللغات. تقوم منهجيتنا على تحليل فلسفي للأدبيات المتعلقة بهذه الفلسفات وتطبيقها في التعليم وعلى مقارنتها للتمكن من بيان تكاملها في عملية التدريس. تتمثل إشكالتنا الرئيسية في السؤال الآتي: كيف تساهم تلك المقاربات الفلسفية المعاصرة في إعادة تعريف أدوار المعلم والمتعلم في العملية التعليمية؟ تبنّت الدراسة مجموعة من الفرضيات، منها إسهام هذه الفلسفات في نجاح العملية التعليمية في كثير من أبعادها.

الكلمات المفتاحية:

الظاهريّة؛
التأويلية؛
ما بعد الحداثة؛
الديداكتيك؛
ديداكتيك اللغات؛

ABSTRACT:

Keywords:

Phenomenology,
Hermeneutics,
Postmodernism,
Didactics,
Language didactics,

This study explores the role of contemporary philosophical approaches (phenomenology, hermeneutics, postmodernism) in the redesign of teaching methods. Based on an analysis of their application in the field of education, the central question is: how do these philosophies redefine the roles of teachers and learners? The study hypothesises that these philosophies contribute to the success of the educational process on several levels.

* ناصر الدين بوجاوي.

مُقَدِّمَةٌ:

إِنَّ التَّعْلِيمَ، سَوَاءً كَانَ لِلْمَعَارِفِ أَمْ لِللُّغَاتِ، فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي لَا يَنْفَكُ يَزْدَادُ تَعْقِيدًا لِيُعَايِنَ تَحَوُّلاتٍ جَسِيمَةً طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ تَحْتَ سُلْطَانِ الْعَوْلَمَةِ وَالتَّعَدُّدِ الثَّقَافِيِّ، مَا يُوجِبُ انْتِكَارَ مُقَارَنَاتِ ثَوَاكِبِ حَاجَاتِهِ وَتُجَارِي مُسْتَجِدَاتِهِ، وَفِي مَقَامٍ كَهَذَا، لَمْ يَعُدْ مُرَامُ التَّدْرِيسِ مُقْتَصِرًا عَلَى نَقْلِ بَارِدٍ لِلْمَعَارِفِ، بَلْ عَدَا الشَّأْنُ التَّرْبَوِيُّ دِرَازَةً عَمِيقَةً بِمَوْضُوعَاتِهِ الْمُتَرَابِطَةِ وَبَسِيَّاقَاتِهِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَأَصْبَحَتِ اللُّغَاتُ الْمَكْتَسَبَةُ - لَا سِيَّمَا الْأَجْنِبِيَّةُ مِنْهَا - أَدَاةً لِلتَّفَاعُلِ الثَّقَافِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ بَيْنَ الْمُعَلِّمِينَ وَالتَّعَلِّمِينَ، لِأَجْلِ ذَلِكَ صَارَ مِنَ الْمُحْتَمِّ الْأَخْذُ بِمُقَارَنَاتٍ مَا بَيْنَ تَخْصُصِيَّةٍ تَسْتَلْهُمُ فِيهَا الْعُلُومُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَتَنْتَفِعُ مِنْ تَشَابُهِهَا وَتَسَانُدِهَا. فِي هَذَا السِّبَاقِ تَتَبَدَّى لَنَا أَهَمِّيَّةُ تَطْبِيقِ بَعْضِ الْفَلَسَفَاتِ الْمَعَاصِرَةِ فِي مَجَالِ الدِّيدَاكْتِيكِ الَّذِي تَرَفُّدُهُ بِأُطُرٍ نَظَرِيَّةٍ نَقْدِيَّةٍ تُعِيدُ النَّظَرَ فِي طَبِيعَةِ التَّعْلِيمِ وَمَقَاصِدِهِ.

لَا شَكَّ أَنَّ الْفَلَسَفَةَ كَانَ لَهَا دَوْرٌ مُهِمٌّ فِي تَطَوُّرِ النِّظَرِيَّاتِ التَّرْبَوِيَّةِ عَلَى كَرِّ الْعُصُورِ، لَا سِيَّمَا مِنْ جِهَةِ صِيَاغَةِ الْأُطُرِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ لِلتَّدْرِيسِ بِعَامَّةٍ. فَتَوَشَّكُ أَلَا نَلْفِي فَيْلُسُوفًا كَبِيرًا إِلَّا وَكَانَ لَهُ إِسْهَامَاتٌ بِهَذَا الْقَدْرِ أَوْ ذَاكَ فِي وَضْعِ رَكَائِزِ التَّعْلِيمِ الَّتِي لَا تَنْحَصِرُ فِي نَقْلِ الْمَعَارِفِ، وَإِنَّمَا عَلَى تَرْقِيَةِ عَمَلِيَّةِ الْاِسْتِيعَابِ وَتَجْوِيدِ الْفِكْرِ النَّقْدِيِّ وَتَحْسِينِ الْفَهْمِ الدَّلَالِيِّ، وَكَانَ هَذَا شَأْنًا أَفْلَاطُونُ وَأَرِسْطُو وَزُوسُو وَكَانَتْ وَدِيوِي مِمَّنْ عَرَفُوا بِوَضْعِ اللَّبَنَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ الْأَوَّلِ اِئْتِغَاءَ تَرْبِيَةِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى الْقِيَمِ الْكَوْنِيَّةِ.

وَلَمْ تَلْبَثِ الْفَلَسَفَاتُ التَّدْرِيسِيَّةُ أَنْ تَطَوَّرَتْ فِي الْقَرْنَيْنِ الْعِشْرِينَ وَالْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مَعَ بُرُوزِ تَيَّازَاتِ فِلَسَفِيَّةٍ مُعَاصِرَةٍ مِنْ قَبِيلِ الظَّاهَرَاتِيَّةِ وَالتَّأْوِيلِيَّةِ، وَمَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ، كَانَ لِتَطْبِيقِ مَنَاجِحِهَا إِظْهَارًا لِحَوَانِبِ مِنَ الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ فِي غَايَةِ التَّعْقِيدِ وَالْعُمُقِ، طَارِحَةً أَسْئَلَةً جَدِيدَةً حَوْلَ الْأَدْوَارِ وَالْوُظَائِفِ الْكُلَّاسِيكِيَّةِ لِلْمُعَلِّمِ وَالتَّعَلِّمِ، وَحَوْلَ طَرَائِقِ تَعْلُمِ اللُّغَةِ فِي ظِلِّ السِّيَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ الْمُتَبَدِّلَةِ.

تَهْدَفُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ إِلَى إِمْعَانِ النَّظَرِ فِي دَوْرِ الْمُقَارَنَاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ، كَالظَّاهَرَاتِيَّةِ وَالتَّأْوِيلِيَّةِ وَمَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ، فِي إِعَادَةِ صِيَاغَةِ الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ بِفِلَسَفَتِهَا وَمُخْتَوِيَاتِهَا وَمَنَاجِحِهَا، لَا سِيَّمَا تَعْلِيمِ اللُّغَةِ الْأَجْنِبِيَّةِ، فِي ظِلِّ السِّيَاقَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُهَا التَّعَدُّدِيَّةُ اللُّغَوِيَّةُ وَالثَّقَافِيَّةُ. وَتَسْتَنِدُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ إِلَى فَرَضِيَّاتٍ مُؤَدَّاهَا أَنَّ الْأَخْذَ بِهَذِهِ الْفَلَسَفَاتِ، سَوَاءً أَفِي مِيدَانِ الدِّيدَاكْتِيكِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ أَمْ فِي مِيدَانِ دِيدَاكْتِيكِ اللُّغَاتِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، يُقَوِّي مَلَكَاتِ (الْمَهَارَاتِ) الْمُتَعَلِّمِينَ فِي إِدْرَاكِ الْاِحتَوِيَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، لَا مِنْ طَرِيقِ اِسْتِيعَابِ مَبَادِئِهَا وَقَوَاعِدِهَا الرَّاسِخَةِ، بَلْ مِنْ طَرِيقِ الْوَعْيِ الثَّقَافِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ الْمُفْتَرِنِ بِاِسْتِعْمَالِهَا (السِّيَاقِ وَالتَّدَاوُلِ).

عَلَى ضَوْءِ مَا أُوْرَدَناهُ آنِفًا، يَأْتِي هَذَا الْمَقَالُ لِجِيْبِ عَنْ إِشْكَالِيَّةٍ رَئِيسَةٍ نَصُوعُهَا عَلَى النُّحُو الْآتِيَّةِ: "مَا الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ تُقَدِّمَهُ الْمُقَارَنَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ مَا بَيْنَ التَّخْصُّصِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةِ فِي الْمُقَارَنَةِ الظَّاهَرَاتِيَّةِ وَالتَّأْوِيلِيَّةِ وَمَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ لِلدِّيدَاكْتِيكِ بِعَامَّةٍ وَلِدِيدَاكْتِيكِ اللُّغَاتِ بِخَاصَّةٍ؟ وَمَا الْاَثَارُ النَّظَرِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ لِهَذِهِ الْفَلَسَفَاتِ فِي مُمَارَسَةِ الْعَمَلِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ وَالتَّدْرِيسِ اللُّغَوِيِّ فِي زَمَنِ الْعَوْلَمَةِ الْمُفْرِطَةِ؟

كَمَا نَصُوغُ هَذِهِ الْمَشْكِلَاتِ الْفُرْعِيَّةَ كَالْتَّالِي: مَا دَوْرُ الْفُلْسَفَاتِ الظَّاهِرَاتِيَّةِ وَالتَّأْوِيلِيَّةِ وَمَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ فِي إِعَادَةِ تَعْرِيفِ أَدْوَارِ الْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ؟ كَيْفَ يُمَكِّنُ دَمْجُ الظَّاهِرَاتِيَّةِ وَالتَّأْوِيلِيَّةِ وَمَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ فِي الْمَنَاحِجِ الدِّرَاسِيَّةِ لِتَعْلِيمِ اللُّغَةِ؟

فُرُوضُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ ثَلَاثَةٌ: أَوَّلُهَا: أَنَّ إِعْمَالَ الْفُلْسَفَاتِ الْمَعَاصِرَةِ فِي مَجَالِ الدِّيدَاكْتِيكِ يَزِيدُ الْمُتَعَلِّمِينَ قُدْرَةً عَلَى النِّقَازِ إِلَى مَعَانِي النُّصُوصِ اللُّغَوِيَّةِ نَفَادًا أَعْمَقَ وَأَكْمَلَ؛ ثَانِيهَا: أَنَّ اسْتِثْمَارَ الْمَقَارِبَاتِ الظَّاهِرَاتِيَّةِ وَالتَّأْوِيلِيَّةِ وَمَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ يُحَسِّنُ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ مِمَّا يُسَهِّلُ فِي نَجَاحِ الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ فِي الصُّفُوفِ الدِّرَاسِيَّةِ؛ ثَالِثُهَا: أَنَّ إِدْمَاجَ هَذِهِ الْفُلْسَفَاتِ فِي صَمِيمِ الْمَنَاحِجِ التَّعْلِيمِيَّةِ يَخْلُقُ بِيئَةً تَعْلِيمِيَّةً أَوْفَى اسْتِجَابَةً لِمَا يَحْتَاجُهُ الْمُتَعَلِّمُونَ مِنْ ثَقَافَاتٍ وَاللِّسَنَةِ مُتَعَدِّدَةٍ.

اسْتَنْجَدْنَا فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الدِّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي انْتَفَعْنَا بِهَا غَايَةَ النَّفْعِ، نَذْكُرُ مِنْهَا عَلَى التَّوَالِي الزَّمَنِيِّ:

أَوَّلًا: دِرَاسَةُ بُونِيَادِي Bonyadi التي تَحْمِلُ الْعِنُونَ التَّالِي:

Bonyadi, Alireza. "Phenomenology as a research methodology in teaching English as a foreign language." Asian-Pacific Journal of Second and Foreign Language Education 8.1 (2023)

قَدَّمَ عَلِيّ رِضَا بُونِيَادِي الظَّاهِرَاتِيَّةَ مِنْهَجٌ بَحْثِيًّا لِفَحْصِ تَجَارِبِ الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ، مَا مَكَنَ مِنَ الْكَشْفِ عَنِ الْمَعَانِي الْعَمِيقَةِ لِلتَّعْلِيمِ وَدَوْرِ التَّفَاعُلِ فِي السِّيَاقَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ.

ثَانِيًا: دِرَاسَةُ تَشَانْغِ Chang الْمَعْنُونَةِ بِ:

Chang, Qing. "The contribution of a hermeneutic approach to investigate psychological variables in second language acquisition." Frontiers in psychology 13(2022)

أَظْهَرَتِ الدِّرَاسَةُ كَيْفَ تُسَهِّلُ الْمَقَارِبَةُ التَّأْوِيلِيَّةُ فِي دِرَاسَةِ الْمُتَغَيَّرَاتِ النَّفْسِيَّةِ أَثْنَاءَ تَعْلُمِ اللُّغَةِ الثَّانِيَّةِ، كَالْفُلُقِ وَالتَّخْفِيزِ.

ثَالِثًا: دِرَاسَةُ إِدْلز-هِيْرش Eddles-Hirsch الَّتِي تَحْمِلُ هَذَا الْعِنُونَ:

Eddles-Hirsch, Katrina. "Phenomenology and educational research." International Journal of Advanced Research 3.8.(2015)

نَصَّتِ الدِّرَاسَةُ عَلَى قُدْرَةِ الْمَنَهِجِ الظَّاهِرَاتِيَّ فِي مَجَالِ التَّرْبِيَةِ عَلَى إِمَاطَةِ اللَّثَامِ عَنْ جَوَانِبِ مَفْهُودَةٍ وَعَمِيقَةٍ فِي تَجَارِبِ الْمُتَعَلِّمِينَ.

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ: دِيدَاكْتِيكُ اللُّغَاتِ مِنْ مَنْظُورٍ ظَاهِرَاتِيٍّ:

1-1 المَبَانِي الْفَلْسَفِيَّةُ لِلظَّاهِرَاتِيَّةِ فِي الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ:

لَقَدْ أَفْصَحَ التَّارِيخُ عَنْ هَيْمَنَةِ الْمَنَاحِجِ الْكَمِّيَّةِ ذَاتِ الْمُنْحَى التَّجْرِبِيِّ عَلَى مَجَالِ التَّعْلِيمِ بِعَامَّةٍ¹ وَعَلَى نُذْرَةِ الْمَنَاحِجِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَتَجَاوَزْ حَسَبَ لَازَارَاتُون Lazaraton نِسْبَةً 13٪ مَا بَيْنَ عَامَيَّ 1991 وَ2001²، وَبَقِيَ هَذَا الْحَالُ قَائِمًا، لَا سِيَّمَا فِي مَجَالِ اللُّغَوِيَّاتِ التَّطْبِيقِيَّةِ، حَتَّى مَعَ الظُّهُورِ الْمُتَأَخِّرِ لِمَنْظُورَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ التَّخْصُّصَاتِ فِي مَنَاحِجِ الْبَحْثِ وَالدِّرَاسَاتِ مُتَعَدِّدَةِ التَّخْصُّصَاتِ. لَقَدْ جَاءَتِ الظَّاهِرَاتِيَّةُ، عَلَى غِرَارِ بَعْضِ النُّزَعَاتِ الْكَيْفِيَّةِ فِي الْعُلُومِ

الاجتماعية، للردّ على فكرة احتكار المناهج الكمّية للحقيقة العلمية، داهين إلى أنّ التقليد الكمّي ليس السبيل الوحيد المتفوّق في البحث العلمي، ذلك أنّ الظواهر البشرية لا يمكن للقياس الكمّي إلا أن يُقدّم لنا أجوبة ناقصة عنها، خصوصاً أنّ هذا التقليد غافل عن دور الأفراد في استكشاف الطرائق التي بها يفهمون عالمهم اليومي.³ يُسفر هذا عن الرؤية الفاصلة التي تسعى إلى تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على القضايا الإنسانية، متناسية أنّ الناس لا يتفاعلون بسداجة وآلية مع المحفزات الخارجية، وإنما يستجيبون لها تبعاً لوعيهم المتميّز وتصوّراتهم الخاصة وهم من هذه الحيثية يشكّلون معناها.

تقوم الظاهراتية على الخبرة الذاتية للفرد في إدراك الواقع، بما يجعل المعرفة بأيّ موضوع غير منفصلة البتّة عن تجربة الفرد المتعلّم، فلا يكتسب التعلّم معنى إلا بالنظر إلى انغماس المتعلّمين بوساطة خبراتهم في إدراك ما حولهم من أشياء معنوية وأشياء مادية، لذلك لا تبتلع العملية التعليمية مبتغاها الأمثل ما لم تأخذ جانب التجربة الحميمية للأفراد وأثناء استقبالهم للمعلومات والمعارف بالاعتبار، تماشياً مع خصوصية كل تجربة فردية. وقد أشار بونيادي Bonyadi إلى أنّ الظاهراتية، باعتبارها منهجاً بحثياً، يمكن أن تُوظف في السياقات التعليمية للتحرّي عن ماهية الظاهرة من منظور الفرد الذي يخبرها.⁴

2-1. المنهج الظاهراتي مطبقاً على تدريس اللغات:

لم يكن ميدان البحث في مجال الديدأكتيك بعامة وديدأكتيك اللغات يخلو من تطبيقات المنهج الظاهراتي، فقد ظهرت مجموعة من الدراسات المهمة التي وظف فيها بعض الباحثين هذا المنهج الفلسفي، نذكر منها دراسة جرى فيها فحص تجارب المتعلّمين والمعلّمين مع التعليم بالأنترنت جنباً إلى جنب مع دمج التقنيات الحديثة في التدريس،⁵ وتجارب تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية⁶، مع ذلك يتأسّف الباحث فاريل Farrell من تردّد بعض الباحثين في تطبيقه، على الرغم مما يتيحه من أسئلة واسعة في ميدان التعليم.

ليس في المكنة تطبيق هذا المنهج الفلسفي المعاصر ما لم يثّم الباحث أولاً بتوجيه الوعي المتبيّط إلى استخلاص التجارب الحية للمشاركين المتعلّمين أثناء جمع البيانات بالمقابلات والتقارير اللفظية والكتابية، وفوق ذلك عليه أن يجري ويُقوم تعليق جميع افتراضاته السابقة، فيما يُسمّى بالمرحلة الإبوحية، حتى يتلافى تأثيرها على الأوصاف الشعورية التي يُدلي بها المتعلّمون، وحتى لا تعكس سيورته البحث افتراضاته، عوض أن تبرز تجربتهم الإدراكية الواعية.⁷ وبالإسناد إلى ضرورة الإنصات إلى المعاني التي يضيفها المتعلّمون على عملية تعلّمهم، بمسّطاع الباحث الظاهراتي أن يعتمد أيضاً على دراسة اليوميات التي تُقدّم معلومات مفيدة للمعلّمين والمتعلّمين والباحثين سواء بسواء، كضرب من البحث الكيفي الذي يضع نصب عينيه العمليات التي يصعب بلوغها ويتعذّر فتح باب التحري فيها، وهي، في سياق الديدأكتيك، سرّد شخصي لخبرة تعلّم أو تدريس اللغة يجري فيه توثيقه بفضل إدخال منتظمة وصريحة في سجل شخصي، ثمّ يحصل تحليله للكشف عن الأنماط المتكررة والأحداث البارزة.⁸

للتحقّق من صحة نتائج المقاربة الظاهراتية للأثناء التي يكتسب بها المتعلّمون، على سبيل المثال، لغة أجنبية ثانية، على الباحث أن يُقارع بادئ الأمر نتائج مع نتائج الأبحاث الأخرى التي أجراها باحثون آخرون على الظاهرة

نفسها، ومن المقدور أن يعزّز التحقيق بالرجوع إلى المتعلمين الذين أُجريت عليهم التجربة لينظر إن كانوا موافقين على النتائج التي قد ثوائم تجاربهم الحية، وبناءً على ذلك، من المستطاع إحداث تعديلات طفيفة في تفسيرات الباحثين كما بين سون. مع ذلك ذهب بعض الظاهراتيين كجيورجي Giorgi إلى افتقار المتعلمين إلى التجربة الضرورية للحكم على نتائج البحث.⁹

ومن الدراسات التي تصلح أن نوردّها كأمودج على تطبيق المنهج الظاهراتي دراسة علي رضا بونادي بعنوان "الظاهراتية باعتبارها منهجية بحث في تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية"، حيث جرى استخدام دراسة حالة تعتمد على يوميات طالبة لمباحثة تصوّرها عن فشلها الأكاديمي وإعادة اجتياز مادة اللغويات، أين طلب الباحث من العينة (طالبة جامعية) أن تكتب يومياتها بلغتها الأم، لتقدّر على وصف مشاعرها وأفكارها بحرية ودقة وتقادي عائق اللغة، ثم قام الباحث بالترميز الدقيق للكلمات والعبارات المحددة (الجوانب الدقيقة)، ثم تعيين الأنماط المتكررة (الجوانب الكبرى)، ثم تصنيف وصف الأنماط الرئيسية، من قبيل مشاعر الفشل العاطفي والاجتماعي والشعور بالندم والتفاؤل بعد إعادة اجتياز المادة، ثم قام الباحث بالتحقق من نتائجه بواسطة التحقق من الأعضاء (member checking)، لضمان تطابق تفسيره الظاهراتي مع التجربة المعيشة للعينة. انتهى الباحث إلى تقديم توصيات تربوية للمعلمين في ميدان تدريس اللغة الإنجليزية، بالاهتمام بتصوّرات الطلاب لفشلهم، مبيناً التأثير الذي يسببه التقييم على مشاعرهم وتحفيزهم الدراسي.¹⁰

الجزء الثاني: ديдаكتيك اللغات من منظور تأويلي:

2-1. المبادئ الفلسفية للفلسفة التأويلية في النشاط التعليمي:

لقد ارتبطت التأويلية (Herméneutique)، بوصفها تفسيراً وتوضيحاً، بالفلسفة منذ بداياتها الأولى،¹¹ ولقد شهدت تطوراً كبيراً من كونها فهمًا للنصوص الدينية والقانونية والأدبية المكتوبة وتفسيراً لها، إلى كونها فهمًا للتجارب البشرية الحية، على تنوعها وتعديدها، وتفسيراً لها. ولغى المنهج التأويلي وقابليته لأن يشمل كل ما يستيه فيهم ديلتاي Wilhelm Dilthey سابقاً بعلم الروح في مقابل علوم الطبيعة، نهض علماء كبار على تطبيقه في بعض العلوم الاجتماعية، كما كان شأن عالم الاجتماع ألفريد شوتس Alfred Schütz الذي طبق منهجاً تأويلياً تفهيمياً في علم اجتماع الحياة اليومية، ليتناول العالم المعيش للفاعلين الاجتماعيين، بوصفه فضاء من المعاني التي يجري تكوينها اضطراراً يوماً بعد يوم، حيث يشدد على المعنى الذاتي الذي يصوغونه ويكوّنونه، من أجل تفسير الواقع الذي هم فيه منخرطون. وهم يصطبغون ذلك خلال تفاعلاتهم الاجتماعية على نحو يضيفون ما يختبرونه إلى المخزون المعرفي والتجريبي المشترك.

لا مريّة من اندراج المنهج التأويلي في مناهج البحث الكيفية التي تزود الباحثين بعدة مفاهيمية ونظرية تمكّنهم من مجابهة الطابع المعقد للظواهر الإنسانية، فهو يضيء أيما إضاءة العلاقات بين الظواهر والسيئات التي تعمل فيها. لأن كانت التأويلية الاجتماعية في هذا السياق فهمًا لكيفيات بناء الواقع في أوساط تاريخية واجتماعية محدّدة وأنحاء تشكيل هذه الأوساط ذاتها، بما يبيح إعادة بناء قيم التفاعل بين البنى والفاعليات الاجتماعية؛ وتشكيل

مَنْطِقِهِ وَنُظْمِهِ، فَإِنَّهَا فِي سِيَاقِ الْوَسْطِ التَّعْلِيمِيِّ حَقْرٌ فِي دِيْنَامِيكِيَّاتِ التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ بِتَحْرِي الْفَضَاءِ التَّعْلِيمِيِّ وَالْمَعَانِي الَّتِي بِهَا يُخَدِّثُونَ وَقَعًا عَلَى وَقَعِ الْمُتَعَلِّمِينَ الْمُدْرَكَ.

وَفَوْقَ ذَلِكَ، فَإِنَّهَا تُعَالَجُ أَسْئَلَةً كَبِيرَةً مَانِحَةً تَفْسِيرًا لِلتَّطَوُّرَاتِ الْمَعَاوِرَةِ فِي اسْتِرَاطِيكِيَّاتِ التَّعْلِيمِ وَصُنْعِ السِّيَاسَاتِ. فَهِيَ تُقَدِّمُ بَحْثًا تَكَامُلِيًّا فِي الْخُطَطِ التَّعْلِيمِيَّةِ الرَّاسِخَةِ فِي رَحَابِ السِّيَاقَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي لَهَا أَثَرٌ فِي تَغْيِيرِ الْمَعَايِيرِ التَّعْلِيمِيَّةِ وَالْكَادِمِيَّةِ الرَّسْمِيَّةِ وَإِمَاطَةِ اللَّقَامِ عَنْ طَرَائِقِ بِنَاءِ الطُّلَّابِ لِإِدْرَاكِهِمْ وَوَقْعِهِمْ وَوَقْعَهَا عَلَى عِلَاقَتِهِمْ بِالْخُطَطِ التَّعْلِيمِيَّةِ.¹² وَلَقَدْ انْتَبَرَى بَعْضُ الْبَاحِثِينَ فِي اللُّغَةِ الثَّانِيَّةِ، مِنْ الْمُهْتَمِّينَ بِمِدَادِ عِلْمِ نَفْسِ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ وَعِلْمِ نَفْسِ التَّعْلِيمِ، لِتَطْبِيقِ الْمَنْهَجِ التَّأْوِيلِيِّ، لِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ إِمْكَانَاتِ تَفْسِيرِيَّةٍ خَلِيقَةٍ بِالْاهْتِمَامِ، فِي بَيَانِ الْعَوَامِلِ النَّفْسِيَّةِ الْكَامِنَةِ فِي اِكْتِسَابِ اللُّغَةِ الثَّانِيَّةِ، مَعَ ذَلِكَ ظَلَّ تَوْظِيفُهُ فِي بَدَايَةِ مَسِيرِهِ.

إِنْ كَانَتْ الدَّائِرَةُ التَّأْوِيلِيَّةُ (Cercle herméneutique) مَوْكُولَةً إِلَى التَّفَاعُلِ الْمُتَجَدِّدِ بَيْنَ تَقْدِيرَاتِ الْمُؤَوَّلِ السَّابِقَةِ حَوْلِ النَّصِّ، وَتَحْسِينِهِ وَتَعْدِيلِهِ فِي غُضُونِ سَيُورَةِ التَّأْوِيلِ¹³، فَإِنَّ التَّأْوِيلِيَّةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ تَظَلُّ مُعَلَّقَةً عَلَى هَذَيْنِ الْمُبْدَأَيْنِ؛ أَوَّلَاهُمَا أَنَّهُ لَا غِنَى لِلْمُؤَوَّلِ مِنْ أَنْ يَرْتَابَ أَنَاءَ بَحْثِهِ مِنْ تَأْوِيلَاتِهِ، وَحَقٌّ عَلَيْهِ أَيْضًا أَنْ يَتَثَبَّتَ عَلَى جِهَةِ النَّقْدِ وَالتَّقْصِ مِنْ كُلِّ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِهَا¹⁴، وَثَانِيَهُمَا أَنَّهُ لَا مَنُودُوحَةً عَلَى الْمُؤَوَّلِ مِنْ أَلَا يَفْتَصِرَ عَلَى فَهْمِ النَّصِّ بِالنَّصِّ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَمِسَ الْمَدَدَ مِنَ السِّيَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ الَّتِي فِي أَتُونِهَا أُنتِجَ. إِضَافَةً إِلَى هَذَا كُلِّهِ، تُعِيدُ التَّأْوِيلِيَّةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ بِنَاءَ النَّصِّ الَّذِي عَلَيْهِ تَقُومُ عَمَلِيَّةُ تَعَلُّمِ مَا، مَعَ أَخْذِ جَمِيعِ التَّأْوِيلَاتِ الْمُمْكِنَةِ فِي الْإِعْتِبَارِ، لَكِنْ مَعَ تَلَاوُفٍ تَجَاهِلِ الْبَدَائِلِ التَّأْوِيلِيَّةِ الْأُخْرَى أَوْ اسْتِبْعَادِهَا، مَعَ وَضْعِ بَعْضِ الْمَعَايِيرِ، أَثْنَاءَ تَفْكِيكِ النَّصِّ إِلَى مُكَوِّنَاتِهِ، لِصِلَاحِيَّةِ أَيِّ جُزْءٍ مِنْهَا مِنْ أَجْلِ تَمْحِصِ التَّأْوِيلَاتِ عَلَى الدَّوَامِ، وَفَحْصِ الْإِفْتِرَاضَاتِ وَإِعَادَةِ صِيَاغَتِهَا فِي كُلِّ قِرَاءَةٍ تَالِيَةٍ. لَا غَضَاضَةَ أَنْ نُورِدَ أَيْضًا مَبْدَأَ التَّنَاقُيَّةِ (Sequentiality Principle) الَّذِي يُفِيدُ النَّظَرَ إِلَى الْبِنْيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِأَيِّ نَصٍّ، وَلِيَكُنْ نَصًّا تَعْلِيمِيًّا، أَوْ لِأَيِّ حَدَثٍ، بِإِعْتِبَارِ أَنْ حَقِيقَتَهُ تَتَرَكَّبُ مِنْ سَلَاسِلٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُتَعَابِقَةٍ عَلَى الْبَاحِثِ أَنْ يُعِيدَ تَرْتِيبَهَا زَمَنِيًّا، بِمَا يُفْصِحُ عَنْ بِنَاهَا الْمَعْنَوِيَّةِ الْكَامِنَةِ، مَا يُمَكِّنُ مِنْ تَجَنُّبِ التَّحْلِيلِ السَّاكِنِ الْجَزْأً؛ فَالْنُّصُوصُ وَالْأَفْعَالُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ كَذَلِكَ لَا يَقَعُ فَهْمُهَا إِلَّا مِنْ طَرِيقِ التَّعَامُلِ مَعَ الطَّابِعِ الْمُتَتَابِعِ زَمَنِيًّا لِطُرُوفِهَا وَأَشْرَاطِهَا الَّتِي تَتَشَكَّلُ فِي غُضُونِهَا، إِذْ لَا يُشَدَّدُ عَلَى مَعْنَاهَا اللَّحْظِيِّ فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا، بَلْ عَلَى مَنَاوِيلِ تَفَاعُلِهَا ضِمْنَ التَّسْلُسِلِ الزَّمَنِيِّ، ابْتِغَاءً بِبِنَاءِ الْمَعْنَى الْكُلِّيِّ، غَيْرَ أَنَّ نَظْرًا كَهَذَا مُنَوِّطٌ بِمُسْلَمَةٍ أَنَّ الْبِنْيَ الْمَعْنَوِيَّةَ تَقُومُ عَلَى مَبْدَأِ التَّنَاقُيَّةِ.¹⁵

لَعِنَ كَانَتْ الْفَلَسَفَةُ التَّأْوِيلِيَّةُ مُسْتَنَدَةً فِي جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنْهَا عَلَى فَهْمِ النُّصُوصِ بِعَامَّةٍ وَتَفْسِيرِهَا بِغِيَّةٍ اسْتِنْبَاطِ الْمَعَانِي الْكَامِنَةِ فِيهَا، فَإِنَّهَا فِي مَقَامِ الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ تَفْسِيرٌ لِمَعَانِي النُّصُوصِ التَّرْبَوِيَّةِ الْمُسْتَحْدَمَةِ لِاِكْتِسَابِ الْمَعَارِفِ أَوْ اللُّغَاتِ فِي كَنْفِ السِّيَاقَاتِ الثَّقَافِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ الْمُتَعَدِّدَةِ، لَكِنْ لَيْسَ فَقَطْ مِنْ طَرِيقِ التَّفْسِيرَاتِ الْمَعْيَارِيَّةِ أَوْ الْقَوَاعِدِ الرَّاسِخَةِ، وَإِنَّمَا بِوَسَاطَةِ عَمَلِيَّةِ التَّفَاعُلِ الْمُبْدِعِ مَعَ النُّصُوصِ وَأَوْسَاطِهَا الثَّقَافِيَّةِ. ذَلِكَ أَنَّهُ بِمَعْيَةِ التَّفَاعُلِ مَعَ النُّصُوصِ الثَّقَافِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ، يَصِيرُ الْفَهْمُ غَايَةً فِي الْإِثْقَانِ وَأَشَدَّ الْإِحْكَامِ بِالْوَاقِعِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ الْمُتَعَلِّمُ.¹⁶

فَمَعْنَى النُّصُوصِ وَمَعْنَى مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ اكْتِسَابِ لِلُّغَاتِ يَجْرِي تَكْوِينُهُ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ بِأَفْضَالِ التَّفَاعُلِ الدَّوُوبِ بَيْنَ النَّصِّ وَالتَّعَلُّمِ. وَقَدْ جَاءَتْ دِرَاسَةُ تَشَانِغِ Chang لِيَبَيِّنَ أَنَّ "المُقَارَبَةَ التَّأْوِيلِيَّةَ تَضْطَلِعُ بِدَوْرٍ إِبْجَائِيٍّ فِي تَفْسِيرِ الْمُتَغَيَّرَاتِ النَّفْسِيَّةِ، بِنَاءً عَلَى إِدْرَاكِ الْمَعْنَى الْكَامِنِ وَرَاءَ عَمَلِيَّاتِ اكْتِسَابِ اللُّغَةِ، ذَلِكَ الْإِدْرَاكُ الَّذِي يَتَبَيَّنُ لَا حَسَبَ الْحَلْفِيَّاتِ النَّفْسَانِيَّةِ، بَلْ عَلَى حَسَبِ الْحَلْفِيَّاتِ الثَّقَافِيَّةِ.¹⁷

2-2 جدلية التأويل والمعنى في اكتساب اللغة:

يُعَدُّ كُلُّ نَصٍّ لُغَوِيٍّ، مِنْ مَنْظُورٍ تَأْوِيلِيٍّ، حَامِلًا لِبَطَقَاتٍ عِدَّةٍ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي يَجْرِي الْكَشْفُ عَنْهَا بِفَضْلِ التَّفَاعُلِ الشَّخْصِيِّ مَعَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَحَوُّلٍ مُنْهَجِيٍّ فِي النَّظَرِ إِلَى النُّصُوصِ؛ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهَا عَلَى أَنَّهَا مَعْرُوءَةٌ أَوْ ثَابِتَةٌ، إِلَى النَّظَرِ إِلَيْهَا عَلَى أَنَّهَا قَائِدُ التَّفْسِيرِ الدَّائِمِ، تَبَعًا لِلْسِّيَاقَاتِ الْمُتَوَعَّةِ الَّتِي يَحْصُلُ فِيهَا الْاِشْتِعَالُ عَلَيْهَا. فَوْقَ ذَلِكَ، يَبْدُو الْفَهْمُ التَّأْوِيلِيُّ أَيْضًا فِي سِرُورَةِ التَّعَلُّمِ لَيْسَ مُجَرَّدَ جَمْعٍ بَارِدٍ لِلْبَيِّنَاتِ، بَلْ شُعُورًا حَيًّا بِالْمَعَانِي الَّتِي يَكُونُهَا الْمُتَعَلِّمُ طَبَقًا لِحَبْرَتِهِ الْحَيَّةِ.¹⁸

أَهْمِيَّةُ هَذَا الْمُنَوَالِ فِي التَّعَامُلِ عَلَى النُّصُوصِ اللُّغَوِيَّةِ تَتَجَلَّى حِينَمَا يَسْمَحُ لِلْمُتَعَلِّمِينَ بِالْوُفُوفِ عَلَى الدَّلَالَاتِ الثَّقَافِيَّةِ وَالتَّفْسَانِيَّةِ لِبَعْضِ الْمُفْرَدَاتِ، مَا يُفْضِي إِلَى إِعَادَةِ تَفْسِيرِ النُّصُوصِ بِطَرِيقَةٍ تُؤَثِّرُ إِيْجَابًا فِي حَبْرَاتِهِمُ الدَّائِيَّةِ.¹⁹ يَضْطَلِعُ الْمُعَلِّمُ، بِمُوجِبِ النَّهْجِ التَّأْوِيلِيٍّ، بِمِهْمَةٍ تُوْجِيهِ الْمُتَعَلِّمِينَ مِنْ وَجْهِ إِلَى تَحْرِيقِ مَعَانِي النُّصُوصِ وَسِرِّ أَعْوَارِهَا مِنْ نَوَاحٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَيَتَطَلَّبُ ذَلِكَ فَتْحَ الْمُنَاقَشَاتِ التَّأْوِيلِيَّةِ بَيْنَ الْمُتَعَلِّمِينَ، مِنْ قِبَلِ الْمُنَاقَشَاتِ السَّمَاعِيَّةِ، وَالْقَصَصِ مِنْ شَتَّى الثَّقَافَاتِ، وَالْأَنْشِطَةِ الْمُسْتَنْدَةِ إِلَى الْمَشَارِيعِ، كُلُّ يَنْهَضُ بِرَأْيِهِ وَفَقَ التَّجَارِبِ الثَّقَافِيَّةِ وَالتَّفْسَانِيَّةِ الَّتِي يَمَّا يَنْفَرِدُ.

تُمْكِّنُ الْمُقَارَبَةُ التَّأْوِيلِيَّةُ فِي مَقَامِ تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ مِنْ دَمَجِ الْمَهَارَاتِ الْأَلْسُنِيَّةِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ قِرَاءَةٍ وَكِتَابَةٍ وَاسْتِمَاعٍ وَتَحَدُّثٍ عَلَى نَحْوِ تَأْوِيلِيٍّ يُقَوِّي الْاِتِّصَالَ، وَيُعَزِّزُ الْمَعْرِفَةَ الْمُسَبَّقَةَ وَالْمَهَارَاتِ الْمَعْرِفِيَّةَ عَلَى نَحْوِ مُتَكَامِلٍ.²⁰ يَدْعُونَا سْتِيوارْتِ Stewart إِلَى الْاِتِّبَاهِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَفْكَارٍ رَئِيسِيَّةٍ فِي جَوْهَرِ التَّأْوِيلِيَّةِ الْمَعَاوِرَةِ تَكْمُلُ فِي اِنْدِمَاجِ الْآفَاقِ Fusion of horizons مِنْ حَيْثُ هُوَ اِنْدِمَاجٌ لِلْفَهْمِ الشَّخْصِيِّ فِي الْفَهْمِ التَّارِيخِيِّ وَاِنْدِمَاجٌ بَيْنَ الْمُؤَوَّلِ وَالنَّصِّ، وَاللَّعِبِ Play مِنْ حَيْثُ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى حُرِّيَّةِ الْفَهْمِ وَالتَّأْوِيلِ فِي تَوَلِيدِ الْمَعَانِي مِنَ النُّصُوصِ وَالظَّاهِرِ، وَالسِّمَةِ اللِّسَانِيَّةِ Linguisticality مِنْ حَيْثُ هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى أَهْمِيَّةِ الْبَحْثِ اللُّغَوِيِّ، بِاعْتِبَارِهِ وَسِطًا فِي فَهْمِ الْعَالَمِ وَتَفْسِيرِهِ، فَهِيَ مَحَلُّ الْمَعَانِي الْمُتَوَعَّةِ وَالتَّكثُّرَةِ، وَالْاِنْفِتَاحِ Openness مِنْ حَيْثُ اسْتِعْدَادُ الْمُؤَوَّلِ لِقَبُولِ تَرُدِّدِ مَعْنَى النُّصُوصِ بَيْنَ وَجُوهٍ شَتَّى، يَكُونُ بَعْضُهَا مُفَارِقًا لِمَا جَرَى عَلَيْهِ عُرْفُ الْمُؤَوَّلِينَ.

حَسَبَ تَقْدِيرِهِ، تُفْضِي هَذِهِ مُجْتَمَعَةٌ فِي رَحَابِ التَّأْوِيلِيَّةِ إِلَى مَنْظُورٍ ثَرِيٍّ بِإِزَاءِ مَهَارَةِ الْاِسْتِمَاعِ فِي تَمَلُّكِ اللُّغَةِ الثَّانِيَّةِ (L2)²¹، إِذْ يَلْقَى الْمُتَكَلِّمُونَ، حِينَ يَأْخُذُونَ فِي الْحَدِيثِ، عَنَاءً فِي تَطْوِيرِ مَحْتَوَيَاتِهِمْ، لَكِنَّ الْعُقْدَةَ تَنْفَرِجُ وَالصُّعُوبَةُ تَتَذَلَّلُ حِينَ يَشْتَرِكُ الْمُسْتَمِعُونَ، مِنْ جِهَةِ التَّفَاعُلِ، فِي اِنْتِاجِ تِلْكَ الْمَحْتَوَيَاتِ، وَتُصْبِحُ مَلَكَةُ التَّحَدُّثِ وَالْاِسْتِمَاعِ فِي دُرُوتِهَا، مَا دَامَ يُدْرِكُ كُلُّ مَنْ الْمُتَحَدِّثِينَ وَالْمُسْتَمِعِينَ، عَلَى التَّبَادُلِ، سَنَنَ السِّيَاقَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْوَضْعِيَّةِ

وَاللُّغَوِيَّةُ وَالثَّقَافِيَّةُ الَّتِي يُؤَكِّلُ إِلَيْهَا تَمَلُّكَ أَيْ لُغَةٍ. وَلَقَدْ تَصَدَّى بَرَاؤُنُ لِبَيَانِ أَنَّ اللُّغَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السِّيَاقِ، وَبِهِ يَجْرِي عَلَى السَّوَاءِ تَرْمِيزُهَا وَفَكُّ تَشْفِيرِهَا.²²

أَوَّلَى مُعَلِّمُو اللُّغَةِ الثَّانِيَّةِ عِنَايَةً بِالْأَحْجَاءِ الَّتِي يَجْرِي فِيهَا تَطْوِيرٌ مُتَعَلِّمِي اللُّغَةِ لِسِمَاتِ نَفْسَانِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، كَعَقْلِيَّةِ النُّمُوِّ وَقُوَّةِ الْإِرَادَةِ فِي اكْتِسَابِ اللُّغَةِ الثَّانِيَّةِ فِي كَنْفِ التَّفَاعُلَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْفُصُولِ الدِّرَاسِيَّةِ، وَتَأْثِيرِ ذَلِكَ عَلَى بِنَاءِ وَاقِعِ اجْتِمَاعِيٍّ مُحَدَّدٍ. تَتَغَيَّرُ فِي أَفْقٍ تَأْوِيلِيٍّ كَهَذَا النَّظَرُ إِلَى الْمُتَعَلِّمِينَ الَّذِينَ يُعَدُّونَ إِثْرَ ذَلِكَ فَاعِلِينَ حَقِيقِيِّينَ تَتَرَقَّى عُقُولُهُمْ وَسُلُوكَاتُهُمْ فِي السِّيَاقِ الْاجْتِمَاعِيِّ لِلتَّعَلُّمِ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى الْخَطَابَاتِ (كَيْفَ يَجْرِي الْكَلَامُ عَنِ الْأَشْيَاءِ) وَالتَّأْثِيرَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ (كَيْفَ يَجْرِي الْقِيَامُ بِالْأَشْيَاءِ)، فَتَنْشَأُ عَلَى أَعْقَابِ ذَلِكَ مَشَاعِرُ إِبْجَاطٍ أَوْ سَلْبِيَّةٍ، وَمُؤَدَّى ذَلِكَ ظُهُورُ سِمَاتٍ شَخْصِيَّةٍ لَدَى الْمُتَعَلِّمِينَ وَمُتَغَيَّرَاتٍ وَجَدَانِيَّةٍ.

لَقَدْ أَعْنَى الْبَاحِثَانِ رَمْضَانَ زَادَهُ وَرِضَائِي Ramezanzadeh & Rezaei الدِّرَاسَاتِ الْكَيْفِيَّةِ التَّأْوِيلِيَّةِ فِي دِرَاسَتَيْهِمَا أَسَانِدَةَ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ فِي التَّعْلِيمِ الْعَالِيِّ، الَّذِينَ أَفْلَحُوا فِي تَعَزُّيزِ أَصَالَةِ طُلَاذِهِمْ، تِلْكَ الدِّرَاسَةُ الَّتِي اعْتَمَدَتْ فِي إِطَارِهَا الْمَفَاهِيمِيَّ عَلَى نَظَرِيَّةِ الصِّدْقِيَّةِ أَوْ الْأَصَالَةِ (authenticity theory) الَّتِي أَرَسَى دَعَائِمَهَا بَارْنِيتُ Barnett، مُفْتَرِحَةً فَهْمًا جَدِيدًا لِلصِّدْقِيَّةِ فِي تَعْلِيمِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، بِمَا يَجْعَلُهَا لَيْسَتْ صِفَةً مُؤَرَّوثةً فِي الْمَوَادِّ الْمُبْدَعَةِ مِنْ لَدُنِ الْمُتَحَدِّثِينَ الْأَصْلِيِّينَ، وَإِنَّمَا هِيَ "صَوْتُ أَصِيلٍ" يَنْجُمُ مِنَ التَّفَاعُلَاتِ النَّقْدِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ بَيْنَ الطُّلَّابِ وَالْمُعَلِّمِينَ، مَا يَخْلُغُ أَصَالَةَ تَعْلِيمِيَّةً تَحْدُو الطُّلَّابَ عَلَى الْإِفْصَاحِ عَنْ نَفْسِهِ بِكُلِّ أَرْجِيَّةٍ وَتَفَرُّدٍ. اعْتَمَدَ الْبَاحِثَانِ عَلَى الْمَقَابَلَاتِ وَالْوَنَائِقِ الشَّخْصِيَّةِ مِنْهَجًا كَيْفِيًّا، لِحْجَمِ الْبَيِّنَاتِ بُعْيَةَ الْإِبَانَةِ عَنِ التَّفَاعُلَاتِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي يَتَعَدَّرُ قِيَاسُهَا بِأَدَوَاتٍ تَقْلِيدِيَّةٍ، ثُمَّ اسْتَنَدَا إِلَى التَّفْسِيرِ التَّأْوِيلِيِّ (hermeneutic interpretation) لِفَهْمِ الْبَيِّنَاتِ الْمُسْتَخْلَصَةِ فَهْمًا يَتَخَطَّى سَطْحِيَّتَهَا وَتَأْوِيلَ مَعَانِي الْمَارَسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ،²³ فَخَلَصَا إِلَى ثَلَاثَةِ مَوْضُوعَاتٍ رَئِيسَةٍ بِاعْتِبَارِهَا عَوَامِلَ أَسَاسِيَّةً، لِتَطْوِيرِ الصِّدْقِيَّةِ فِي تَعْلِيمِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ: أَوَّلًا: الْمَعْرِفَةُ النَّقْدِيَّةُ فِي تَعْلِيمِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ (ELT)، ثَانِيًا: الْمَارَسَةُ التَّأْمَلِيَّةُ وَالْجَدَلِيَّةُ، ثَالِثًا: الْمَنْهَجُ الْحَلِّيُّ الْمَرْنُ، بِمَا يَعْكُسُ التَّنَوُّعَ الثَّقَافِيَّ. مِمَّا يَتَوَقَّفُ عِنْدَهُ تَبَنِي الْبَاحِثَانِ لِمَنْظُورٍ مُفَادُهُ تَحَدُّ لِلْحُدُودِ التَّقْلِيدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُفَيِّرُ بَيْنَ النَّاطِقِينَ الْأَصْلِيِّينَ وَالنَّاطِقِينَ غَيْرِ الْأَصْلِيِّينَ لِلُّغَةِ الثَّانِيَّةِ، حَيْثُ لَمْ يَبْنِ الصِّدْقِيَّةَ عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ الْأَصْلِيِّينَ، وَإِنَّمَا أَكَّدَا عَلَى امْتِلَاكِ الْمُتَحَدِّثِينَ غَيْرِ الْأَصْلِيِّينَ لِصِدْقِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ، مَا يَعْنِي إِشْرَاكَ لِلْأَصْوَاتِ الْمَهْمَشَةِ فِي النِّقَاشَاتِ وَالْحَوَازَاتِ فِي عَمَلِيَّةِ تَمَلُّكِ اللُّغَةِ، مَا يُفْضِي إِلَى تَعَزُّيزِ الصِّدْقِيَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ لَدَيْهِمْ، وَحَثِّهِمْ عَلَى فَهْمِ اللُّغَةِ، لَا بِوَصْفِهَا وَسِيلَةً لِلتَّوَاصُلِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا بِاعْتِبَارِهَا أَدَاةً لِفَهْمِ ثَقَافِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ أَرْحَبَ، ذَلِكَ مَا دَعَا الْبَاحِثَانِ إِلَى تَقْدِيمِ تَوْصِيَّاتٍ نَفْسِيَّةٍ تَرْبُويَّةٍ، مِنْ قَبِيلِ اسْتِحْسَانِ فَتْحِ الْبَيْتَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ عَلَى التَّنَوُّعِ الثَّقَافِيِّ وَتَعَدُّدِ التَّفَاسِيرِ، وَاعْتِمَادِ مَنَاحٍ تَعْلِيمِيٍّ شَامِلٍ، تَتَدَاخَلُ فِيهِ الْأَبْعَادُ الْمَعْرِفِيَّةُ وَالْوُجُودِيَّةُ فِي عَمَلِيَّةِ اكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ وَاللُّغَةِ. وَلَقَدْ آلَتْ دِرَاسَتُهُمَا إِلَى افْتِرَاحِ تَوْصِيَّاتٍ لِلْبَحْثِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، مِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اسْتِكْشَافِ مَا لِلتَّفَاعُلِ النَّقْدِيِّ مِنْ تَأْثِيرٍ إِبْجَاطِيٍّ عَلَى الطُّلَّابِ وَالْمُعَلِّمِينَ عَلَى السَّوَاءِ فِي كَنْفِ تَنَوُّعٍ ثَقَافِيٍّ؛ وَفَحْصُ مَا لِلْمَنْهَجِ الدِّرَاسِيِّ الْمَرْنِ مِنْ دَوْرٍ فَعَالٍ فِي تَقْوِيَةِ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الثَّانِيَّةِ.

هَذَا الإِلْحَاحُ عَلَى دَوْرِ السِّيَاقِ، فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ أَدْبِيَّةً كَانَتْ، أَمْ فَلَسَفِيَّةً، أَمْ عِلْمِيَّةً، أَمْ لُغَوِيَّةً، يُظْهِرُ أَنَّ التَّأْوِيلَاتِ طُرًا بِطَبِيعَتِهَا مُؤَقَّتَةٌ وَمَشْرُوطَةٌ وَعَرَضِيَّةٌ لِلتَّغْيِيرِ فِي الْحَاضِرِ أَوْ الْمُسْتَقْبَلِ؛ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَعْنَى مُنْتَجٍ أَوْ مَفْهُومٍ مُسْتَنْبَطٍ إِلَّا وَهُوَ مَفْتُوحٌ عَلَى الْاِحْتِمَالِ وَالصَّرِيرَةِ وَالتَّعَدُّدِ، وَلَيْسَ نَاجِمًا مِنْ نِظَامٍ مُغْلَقٍ وَثَابِتٍ، وَلَيْسَ مَحَلُّ النَّظَرِ فِيهِ الصِّدْقُ وَالِدِقَّةُ، وَإِنَّمَا مِغْيَارُهُ دَاتِيَّةُ الْمَدْرِكِ، بِوَصْفِهَا بُعْدًا رَئِيسًا فِي سَيَرُورَةِ الْفَهْمِ، وَمَا تُفْصَحُ عَنْهُ تَجَارِبُهُ، إِذْ هِيَ عُمْدَةُ التَّأْوِيلِ.²⁴

لَقَدْ أَفْلَحَ تَشِيكَرْتُمْهَالِي Csikszentmihalyi فِي حُسْنِ اسْتِخْدَامِ ضَرْبٍ مِنَ الْمَنَاهِجِ التَّأْوِيلِيَّةِ بِدَمَجِ الْمَقَابَلَاتِ الْمُفْتُوحَةِ وَنِصْفِ الْبِنَائِيَّةِ، مَعَ الْبَيِّنَاتِ الْمُسْتَخْلَصَةِ مِنَ الْاسْتِطْلَاعَاتِ الْكَمِّيَّةِ، مَا أَدَّى إِلَى إِنْتِاجِ بَيِّنَاتٍ غَنِيَّةٍ وَإِجْرَاءِ فُحُوصَاتٍ نَفْسِيَّةٍ أَكْثَرَ اعْتِمَادًا عَلَى التَّجَرِبَةِ تَنَاسُبًا وَالسِّيَاقِ مِنْ تِلْكَمُ الْآيِ جَرَى عَلَيْهَا عُرْفُ الْمَنَاهِجِ الْكَمِّيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، وَمَرَدُّ هَذَا النَّجَاحِ إِلَى مَا فِي الْمَنْهَجِ التَّأْوِيلِيِّ مِنْ مَرِيَّةِ السَّمَاكِ بِجَمْعِ بَيِّنَاتٍ وَاقِعِيَّةٍ وَتَجْرِبِيَّةٍ مِنْ سِيَاقَاتٍ طَبِيعِيَّةٍ.²⁵

الجزء الثالث: تدريس اللغات على مقتضى المقاربة ما بعد الحداثة:

3-1 ما بعد الحداثة وتفكيك الأسس التقليدية للمعرفة والمنهج:

جَرَى اسْتِخْدَامُ مُصْطَلَحِ «مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ» فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، لِيَشْمَلَ تَخْصُّصَاتٍ عَدِيدَةٍ فِي الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، فِي الْفَلَسَفَةِ وَالْعِلْمِ وَالْقَرْنِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَتُعَدُّ رَدًّا فِعْلًا ضِدَّ التَّصَوُّرِ الْحَدَائِيِّ لِلْعَالَمِ، لِأَجْلِ ذَلِكَ فَهِيَ تُنَكِّرُ الْحَقِيقَةَ الْمَوْضُوعِيَّةَ الثَّابِتَةَ، وَالْوُجُودَ الثَّابِتَ، وَالتَّطَابُقَ بَيْنَ اللَّغَةِ وَالْفِكْرِ وَالْعَالَمِ؛ ذَلِكَ أَنَّهَا لَا تَرَى فِي الْحَقِيقَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ غَيْرَ فَنَاحٍ يُخْفِي طَبِيعَتَهَا الْحَقِيقِيَّةَ الْمُتَقَوِّمَةَ بِالْقُوَّةِ وَالصَّرِيرَةِ وَالْحَيْدُودَةِ؛ وَهَذَا مَا يَجْعَلُهَا تَحْدِيًا لِمَنَاهِجِ الْبَحْثِ التَّقْلِيدِيَّةِ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمَيَادِينِ، بِمَا فِي ذَلِكَ مِيدَانُ عُلُومِ التَّرْبِيَّةِ وَدِيدَاكْتِيكِ اللُّغَاتِ.

لَقَدْ حَصَلَ فِي سِيَاقِ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ رَفْضُ اخْتِزَالِ دِرَاسَةِ الْإِنْسَانِ فِي الْعُلُومِ الْفِيزِيَاثِيَّةِ، وَلِذَلِكَ تَجَنَّبُوا الْمَقَارِبَاتِ السُّلُوكِيَّةَ وَالطَّبِيعَاثِيَّةَ، وَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مَا هُوَ مُهِمٌّ لَيْسَ الْحَقَائِقُ، وَلَكِنْ مَعْنَاهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَشَرِ. وَلَقَدْ تَعَزَّزَ هَذَا الْمَنْظُورُ بِنَظَرِيَّاتٍ نِسْبَوِيَّةٍ ظَهَرَتْ فِي تَارِيخِ الْعِلْمِ وَفَلَسَفَتِهِ زَعَمَتْ أَنَّ الظَّاهِرَةَ الطَّبِيعِيَّةَ لَا تَتَمَيَّزُ فِي حَقِيقَتِهَا عَنِ الظَّاهِرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَهُمَا فِي مُنْتَهَى الْأَمْرِ بِنَاءِ اجْتِمَاعِيٍّ وَلُغَوِيٍّ؛ لَا سِيَمَا أَنَّ تَارِيخَ الْعِلْمِ يَكْشِفُ أَنَّ الْحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّةَ مُحْمَلَةٌ بِالْدَاتِيَّةِ وَمُتَمَسِّسَةٌ بِالْإِنْخِيَارِ. وَقَدْ تَقَوَّتْ هَذِهِ الْأُطْرُوحَةُ بِظُهُورِ فِيزِيَاءِ الْكَمِّ وَنَظَرِيَّةِ التَّعْقِيدِ وَالْفَوْضَى، مَا جَعَلَ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ مُسْتَرْعِيَةً لِلْإِنْظَارِ وَغَاوِيَّةً لِلْإِتْبَاعِ.

وَفِي سِيَاقِ فَلَسَفِيٍّ، رَفْضُ فَلَاسِفَةٍ فَرَنْسِيَّوَنَ بِدَوْرِهِمْ، مِثْلَ فُوكُو وَدْرِيدَا وَلِيُونَارِ، الْحَقَائِقَ الْمَوْضُوعِيَّةَ الْحَايِدَةَ، تِلْكَمُ الْآيِ جَرَى عُرْفُ الْعَرَبِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهَا، وَأَكْدَوْا بِمَنَاهِجِهِمُ الْفَلَسَفِيَّةِ أَنَّ الْعُلُومَ الْإِنْسَانِيَّةَ نَفْسَهَا بَنِيَاتٌ ثَقَافِيَّةٌ سَرْدِيَّةٌ لَا تَعَكِسُ الْوَاقِعَ فِي حَقِيقَتِهِ، بِقَدْرِ مَا تَعَكِسُ نِظَامًا مَعْرِفِيًّا مَسْكُونًا بِالسُّلْطَةِ وَمَصَالِحَهَا يَنْفِلْتُ مِنْ قَبْضَةِ الْوَعْيِ الْاِعْتِيََادِيِّ، وَهُوَ الَّذِي يُجَدِّدُ لِلْفِكْرِ مَا هُوَ حَقٌّ وَمَا هُوَ بَاطِلٌ. بِمُقْتَضَى عَلَى هَذَا كُلِّهِ، يَتَهَافَتُ أَيُّ قَوْلٍ نَظَرِيٍّ يَزْعُمُ وُجُودَ مَعْنَى وَاحِدٍ وَاضِحٍ مِنْ جِهَةِ الْيَقِينِ وَالْقَطْعِ، وَإِنَّمَا يَجْدُرُ بِالْمُنْظَرِينَ، كَمَا تَدْعُونَا إِلَى ذَلِكَ أُطْرُوحَةُ الْفِيلَسُوفِ الْبَرَاغْمَاتِيِّ رِيْتَشَارْدِ زُورْتِي، أَنَّ يَفْنَعُوا بِتَوْكِيدِ أَهْمِيَّةِ تَجْرِبِ طَرَائِقَ وَجُودِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَأَسَالِيبَ حَيَاتِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَتَقْيِيمِهَا

بناءً على نتائجها وفوائدها لا غير.²⁶ إنَّ مُصْطَلَحَ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ، عَلَى مَا فِيهِ مِنْ اسْتِخْدَامَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُتَبَايِنَةٍ، لَا يَتِمُّعُ مِنَ الْوُفُوفِ عَلَى حُصُوصِيَّاتٍ مُشْتَرَكَةٍ نُورِدُهَا مِنْهَا مَا يَأْتِي: أولاً: المعارفُ والعُلُومُ لَيْسَتْ حَقَائِقَ مُطْلَقَةً، وَإِنَّمَا هِيَ بَنِيَّاتٌ نِسْبِيَّةٌ مَصُوغَةٌ عَلَى مُفْتَضَى السِّيَاقَاتِ الثَّقَافِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ تَحْتَرِفُهَا الدَّائِيَّاتُ وَالْإِنْجِيزَاتُ وَالْإِفْتِرَاضَاتُ الْمُسَبَّقَةُ. ثانياً: النَّظَرِيَّاتُ لَا تَتَفَاضَلُ فِيمَا بَيْنَهَا، فَلَا تُعَدُّ أَيُّ نَظَرِيَّةٍ أَصَحَّ مِنَ الْأُخْرَى، وَعِلَاقَةٌ عَلَى ذَلِكَ تُضْمَرُ النَّظَرِيَّةُ تَعْقِيدَ مَا تَتَحَدَّثُ عَنْهُ، وَتُشَوِّهُ طَبَقَاتِهِ الْمُتَعَدِّدَةَ، وَتَحْجُبُ مَوَاطِنَ عَدَمِ الْإِتِّسَاقِ فِي نَسَقِهَا الْمُعْرِفِيِّ. ثالثاً: دَخُضَ فِكْرَةٌ أَنَّ الْخُبْرَاءَ أَعْرَفُ مِنْ غَيْرِ الْخُبْرَاءِ، ذَلِكَ أَنَّ الْمَطْلُوبَ فِي كَسْبِ الْمَعَارِفِ لَيْسَ انْفِرَادُ الْمُعَلِّمِينَ فِي إِبْلَاجِ الْمَعَارِفِ، بَلْ هُوَ التَّفَاعُلُ الْمَتَبَادُلُ بَيْنَهُمْ فِي إِنتَاجِ الْأَفْكَارِ؛ وَيُنْظَرُ إِلَيْهِ بِاعْتِبَارِهِ حَوَازًا حَيْثُ التَّأَثُّرُ الْمَتَبَادُلُ عَوَضَ الْإِنْتِاجِ الْمُونُولُوجِيِّ لِلْمَعْرِفَةِ. رابعاً: رَفُضُ الطَّابِعِ الْكُونِيِّ لِلتَّفَرِيقَاتِ الْمُعْرِفِيَّةِ، وَمَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى كَوْنِهَا مُتَعَيَّرَةً بِمُوجِبِ تَنَوُّعِ الْمُجْتَمَعَاتِ، لِأَجْلِ ذَلِكَ تَمَّ الْإِحْتِفَاءُ بِالتَّنَوُّعِ.²⁷

3-2 إعادة تشكيل ديداكتيك اللغات وبيداغوجيا ما بعد المنهج:

مِنَ الْمَقْدُورِ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِنْبَاطِ أَنْ نُشِيرَ إِلَى تَأْثِيرِ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ فِي مَجَالِ تَدْرِيسِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، بِاعْتِبَارِهَا لُغَةً ثَانِيَّةً TESOL مُنْذُ عَامِ 1989، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي تَعَرَّضَ فِيهَا مَفْهُومُ الْمَنْهَجِ لِنَقْدٍ حَادٍّ، بِسَبَبِ مَا يُضْمَرُ مِنْ نَظَرٍ حَظِيَّةٍ فِي الْمَارَسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ مَشُوبَةٍ بِالتَّفَاوُلِ وَالْأَبْوِيَّةِ. لَقَدْ حَمَلَ لَوَاءَ هَذَا النِّقْدِ كُلُّ مَنْ بَنِيكُوكَ Pennycook، وَبَرَابُو Prabhu وَكُومَارَافَادِيْفِيلُو Kumaravadivelu، إِذْ دَهَبُوا إِلَى التَّنْذِيدِ بِمُوسِنَا بِإِيجَادِ مَنْهَجٍ كَامِلٍ وَهَائِيٍّ فِي الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ، فَهَذَا بَنِيكُوكَ يَرَى أَنَّ إِنتَاجَ الْمَعْرِفَةِ الْمَوْجَّهَةِ، عَلَى مَا فِيهَا مِنْ عَقْلَانِيَّةٍ وَتَفَنِّيَّةٍ، تَعْمَلُ لِصَالِحِ الطَّبَقَةِ السَّائِدَةِ وَسِيَاسَةِ تَدْرِيسِ اللُّغَةِ، لِذَلِكَ فَالْمَنْهَجُ عِبَارَةٌ عَنْ مَفْهُومٍ تَوْجِيهِيٍّ يَعْكِسُ وَجْهَةً نَظَرٍ مُعَيَّنَةٍ عَنِ الْعَالَمِ، وَهُوَ بَدَلًا أَنْ يُقَوِّيَ فَهْمَنَا لِتَدْرِيسِ اللُّغَةِ قَلَّلَ مِنْهُ.²⁸

لِذَلِكَ وَجَبَ مِنْ وَجْهِ أَنْ نَتَفَحَّصَ جَمِيعَ مَنَاجِجِ تَدْرِيسِ اللُّغَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ الثَّانِيَّةِ وَكُلِّ الْعُقَائِدِ الْمُرْتَبِطَةِ بِهَا مِنْ جِهَةِ النِّقْدِ وَالْفَحْصِ، كَاشِفِينَ عَنِ الْأَيْدِيُولُوجِيَّاتِ الَّتِي تُوجَّهُهَا، وَفَاضِحِينَ الْمَصَالِحَ الَّتِي تُحَرِّكُهَا، وَحَقِّقَ عَلَيْنَا أَنَّ تَعْمَلَ عَلَى تَجْسِيدِ رُؤْيَا تَعْلِيمِيَّةٍ أَكْثَرَ إِنْسَانِيَّةً تَرْتَبِطُ فِيهَا النَّظَرِيَّةُ التَّرْبُويَّةُ بِالْقَضَايَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ. وَإِلَى رَأْيِي قَرِيبٍ مِنْ هَذَا أَحَدُ بَرَابُو بِوَجْهَةٍ نَظَرٍ مُقَادُّهَا ارْتِفَاعُ مَفْهُومِ الْمَنْهَجِ، مَا دَامَ أَنَّهُ يُفَضِّلُ إِلَى " التَّكْرَارِ الْمُرْطِ " فِي التَّدْرِيسِ وَإِلَى " التَّدْرِيسِ الْإِلِي " الَّذِي يُؤَلَّفُ عَائِقًا أَمَامَ النَّجَاحِ. وَلَقَدْ جَرَى رِيْتَشَارْدز Richards وَرُودْجِرز Rogers عَلَى هَذَا الْمُنَوَالِ، حِينَمَا صَرَّحَا بِأَنَّ الْمَنَاجِجَ التَّقْلِيدِيَّةَ تُعْمَلُ السِّيَاقَ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهِ التَّعْلِيمُ وَالتَّعَلُّمُ، بِقَدْرِ مَا هِيَ مَلِيَّةٌ بِالْمَطَالِبِ وَالْمَزَاجِ حَوْلَ اكْتِسَابِ اللُّغَةِ الثَّانِيَّةِ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّهَا تَقْتَفِدُ إِلَى أُدْلَةٍ بَحْثِيَّةٍ مُعْتَبَرَةٍ.²⁹

يَقْتَرِحُ كُومَارَافَادِيْفِيلُو "بَرَاغَمَاتِيَّةً مَبْدِئِيَّةً"، بِاعْتِبَارِهَا عُنْصُرًا جَوْهَرِيًّا فِي بِيْدَاغُوجِيَّا مَا بَعْدَ الْمَنْهَجِ postmethod pedagogy، تَقُومُ عَلَى الْحَسَاسِيَّةِ بُجَاهَ حَاجَاتِ الْمُتَعَلِّمِينَ الْحَلِّيِّينَ وَظُرُوفِهِمْ. مِنَ الْمَكْنَةِ الْاسْتِنَادُ فِي ذَلِكَ إِلَى إِطَارِ سْتِيرْن Stern ثَلَاثِيٍّ الْأَبْعَادِ three-dimensional framework: الْبُعْدُ الْعُيُ، وَالْبُعْدُ التَّعْلِيمِيُّ التَّدْرِيسِيُّ، وَالْبُعْدُ الْاجْتِمَاعِيُّ الثَّقَافِيُّ (Stern, 1991)³⁰ كَمَا يَصِحُّ تَعْضِيدُهُ بِالْمَوْقِفِ الْمَنْهَجِيِّ الْاسْتِكْشَافِيِّ لَدَى أُولَرَايْت Allwright الَّذِي يَقُومُ مِنْ نَاحِيَةٍ عَلَى إِقَامَةِ الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ، دَاعِيَا الطُّلَّابَ إِلَى اسْتِكْشَافِ الْمَوَادِّ الْمُعْرِفِيَّةِ وَبَنَائِهَا

بأنفسهم على نحو يعزّز التفكير النقدي، ومن ناحية ثانية على التفاعل النقدي بين المعلم والطالب، حيث يصير المعلم ليس محض ناقل للمعرفة، وإنما مشارك أيضاً في بناء المعرفة جنباً إلى جنب مع الطالب. في رحاب ذلك، يُخلّق ويُنقل المحتوى التعليمي على نحو نشيط، يُسهّم في إنجاح العملية التعليمية، ويقوم من ناحية ثالثة على مرونّة مناهجيّة تتكيّف على إثرها العملية التربويّة مع حاجات الطالب والتحدّيات الثقافيّة، وفي هذا كُله نقد لمنهج التدريس التقليديّ الموجه من أعلى إلى أسفل.³¹

يُصبح التعلّم في سياق المقاربات ذات الطابع ما بعد الحداثي عمليّة نشيطة يقوم في عضونها المتعلّمون ببناء سلسلة من المقاربات للمفاهيم المستهدفة من طريق التفاعل الاجتماعيّ والتعاون مع الآخرين، علاوة على اختبار الفرضيات، ما يعني وجود تحوّل حقيقيّ حيث يصير المعلم من شخص "يُعلّم" إلى شخص "يسهل" التعلّم.³² من المقاربات التي يحسُن ذكرها، في سياق المنظور ما بعد الحداثي للعمليات التعليمية، لا سيّما تعليم اللغة، تطبّق لارسن فريمان Larsen-Freeman نظريّة الفوضى والتعقيد chaos/complexity theory على تعليم اللغة الإنجليزيّة، باعتبارها لغة ثانية، حيث يُنظر إلى الوجود من زاوية الصيرورة، لا زاوية الثبات، ومن ناحية السيرونة العملية، لا من ناحية الحالة الراضية. وعلى أعقاب ذلك، يُصبح اكتساب اللغة الثانية عمليّة معقّدة وفوضويّة على غرار الوجود نفسه، ذلك أنّ اللغات تختار فترات وأطواراً على التعاقب من الفوضى والنظام، مثلما هو شأن الأنظمة الحية المفتوحة، لذلك تأتي عمليّة تعلّم لغة ثانية نظاماً معقّداً يكون فيها التعلّم مفتوحاً ومعقّداً ومتعدّداً وصائراً ومهيّأً للتكيّف ومتعدّداً على التنبؤ، ما يستدعي منطقاً جدليّاً علائقيّاً للنظر إليه.³³

الحاتمة:

نُخلص في طور أول إلى تناسب المنهج الظاهريّ مع الظواهر الإنسانيّة الموعلة في التعقيد التي يتخذها موضوعاً لبُحوثه وفُحوصه، لأجل ذلك يُقدّم دراساتٍ كُفّيّة واعدة حينما يطبّق أيضاً على ظاهرة التعليم والتعلّم على السواء، ذلك أنّه لا يُعقل في عمليّة اكتساب المعارف واللغات البعد النفسيّ في مظانّه الاجتماعيّة in its presumed social contexts ذي الطابع الجدليّ، ولا يعزُب عنه التميّز الإبتيمولوجي بين العالم الطبيعيّ للأشياء الذي يخضع لقوانين خاصّة معلّوفة والعالم البشريّ الذي هو نتاج لجدلية الفعل الإنسانيّ التي يصطبغها الأفراد فيما بينهم في علائق معقّدة. نستخلص من المنهج الظاهريّ إمكانيّة مراجعة المعلمين لممارساتهم التعليميّة من منظور شخصيات المتعلّمين ممّا يقوّي التفاعل التربويّ الفعّال في الفصول الدراسيّة، بقدر ما يعزّز الاستجابة على نحو أكمل لحاجاتهم، علاوة على إثراء طرائق التعليم المشدّدة على الطالب، ومن الممكن أن يساهم في إعادة تقييم القضايا المتنبّاة مسبقاً في السياسات التربويّة وتحسين قراراتها ومناهجها.

ننتهي في طور ثانٍ أيضاً إلى أنّ المنهج التأويلي، في خضمّ التطوّرات الحديثة لعالم معاصر متسارع، باعتباره فحوصاً لعمليات تفكير المتعلّمين أثناء التفاعل مع اللغة، ينطوي على إمكانيات قيّمة في الإبانة عن المتغيّرات النفسيّة وعن العوامل المعرفيّة والعاطفيّة المؤثّرة في عمليّة التعلّم بعامة وتعلّم اللغة الثانية بخاصّة، ما يبرز وظيفة التفسيرات الدلاليّة، مُتيّحاً الوقوف على المعاني العميقة في إثراء التعليم الفرديّ، بقدر ما يسدّ الفجوة، كما أظهر كلٌّ من برنغل

وَدَافِي (Bringle and Duffy, 1998) وَشُوت (Schutt, 2014)، بَيْنَ أَعْضَاءِ الْجَمْتَمَعِ الْوَاحِدِ بِتَيْسِيرِ التَّوَاصُلِ الْفَعَالِ بَيْنَ الْجَمْتَمَعِ الْأَكَادِيمِيِّ وَعَامَّةِ النَّاسِ، حَتَّى يَكُونَ لِحُمُوهٍ وَاسِعٍ أَنْ يَطْلُعُوا عَلَى نَتَائِجِ عِلْمِ النَّفْسِ الْإِيحَائِيِّ ذِي الْمُنْحَى التَّأْوِيلِيِّ وَهَذَا مَا يَعْجُزُونَ عَنْهُ فِي إِطَارِ الْمَقَارِبَاتِ الْكَمِّيَّةِ الَّتِي عَالِبًا مَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُلِمِّينَ بِالْإِخْصَائِيَّاتِ الْمُعَقَّدَةِ وَتَحْلِيلِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا. (Creswell, 2009, 2013)

نُحْصِ إِلَى أَنَّ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ قَدْ مَارَسَتْ تَأْثِيرًا عَلَى الْبِيدَاغُوجِيَا وَالْدِيدَاكْتِيكِ وَفَلَسَفَتَهُمَا؛ فَصَارَتْ الْعَمَلِيَّةُ التَّعْلِيمِيَّةُ فِي مَقَامِهَا أَكْثَرَ مُرُونَةً وَفَعَالِيَّةً، بِمَا يَتَّفِقُ مَعَ حَاجَاتِ الْمُتَعَلِّمِينَ مُتَعَدِّدَةِ الْأَبْعَادِ؛ حَيْثُ يَكُونُ الْمُتَعَلِّمُونَ مَرَكَّزَ التَّدْرِيسِ فِي عَالَمٍ يَزْدَادُ تَعْقِيدًا وَتَرَائِبًا.

التَّوَصِيَّاتُ الْمُسْتَقْبَلِيَّةُ:

أَوَّلًا: أَهْمِيَّةُ مُوَاصَلَةِ تَوْظِيفِ الْمَنْهَجِ الظَّاهِرِيِّ وَالتَّأْوِيلِيِّ وَمَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ فِي دِرَاسَةِ الْمُتَغَيَّرَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي تَعْلُمِ الْمَعَارِفِ وَاللُّغَاتِ وَتَعْلِيمِهَا فِي إِطَارِ يَتَفَاعَلُ فِيهِ كُلُّ مَنْ الْمَعْلَمِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ.

ثَانِيًا: اِئْتِكَارُ وَسَائِلِ تَفْسِيرِيَّةٍ كَيْفِيَّةٍ تَتَنَاسَبُ وَالتَّغْيِيرَاتِ الْجَمْتَمَعِيَّةِ لِفَحْصِ التَّجَارِبِ الدَّائِيَّةِ وَالصِّرَاعَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ الَّتِي تَعُوقُ مُكْتَسِبِي الْمَعَارِفِ وَاللُّغَاتِ مِنْ قَبِيلِ الْفَلَقِ، وَنُقْصَانِ التَّخْفِيزِ وَالشَّغْفِ فِي التَّعْلُمِ.

ثَالِثًا: تَعْضِيدُ الْمَنْهَاجِ الْكَمِّيِّ بِمَقَارِبَاتٍ كَيْفِيَّةٍ (ظَاهِرِيَّةٍ وَتَأْوِيلِيَّةٍ وَمَا بَعْدَ حَدَاثِيَّةٍ) تَدْمِجُ فِي دِرَاسَةِ عَمَلِيَّةِ تَمْلِكِ الْمَعْرِفَةِ وَاللُّغَاتِ بَيْنَ التَّجَارِبِ الشَّخْصِيَّةِ وَالسِّيَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّنُوعِ الثَّقَافِيِّ.

المصادر والمراجع:

Bonyadi, Alireza. 2023. "Phenomenology as a Research Methodology in Teaching English as a Foreign Language." *Asian-Pacific Journal of Second and Foreign Language Education*.

Chang, Qing. 2022. "The Contribution of a Hermeneutic Approach to Investigate Psychological Variables in Second Language Acquisition." *Frontiers in Psychology* 13.

Cilesiz, Sebnem. 2020. "Making Meaning through Lived Technological Experiences." In *Phenomenological Inquiry in Education*, edited by —, 148–160. London: Routledge.

Eddles-Hirsch, Katrina. 2015. "Phenomenology and Educational Research." *International Journal of Advanced Research* 3 (8).

Fahim, Mansoor, and Reza Pishghadam. 2011. "Postmodernism and English Language Teaching." *Iranian Journal of Applied Language Studies* 1 (2).

Giorgi, Amedeo. 2007. "Concerning the Phenomenological Methods of Husserl and Heidegger and Their Application in Psychology." *Collection du CIRP* 1 (1): 63–78.

Grondin, Jean. 1994. *Introduction to Philosophical Hermeneutics*. New Haven, CT: Yale University Press.

Larsen-Freeman, Diane. 1997. "Chaos/Complexity Science and Second Language Acquisition." *Applied Linguistics* 18 (2): 141–165.

Lueger, Manfred, and Oliver Vettori. 2014. "Finding Meaning in Higher Education: A Social Hermeneutics Approach to Higher Education Research." In *Theory and Method in Higher Education Research II*, 23–42. Bingley: Emerald Group Publishing.

Murphy, John M. 1989. "Listening in a Second Language: Hermeneutics and Inner Speech." *TESL Canada Journal* 7: 27–44.

Oreshkina, Maria, and Katherine Greenberg. 2010. "Teacher–Student Relationships: The Meaning of Teachers' Experience Working with Underachieving Students." *Journal of Pedagogy* 1 (2): 52.

Pennycook, Alastair. 1989. "The Concept of Method, Interested Knowledge, and the Politics of Language Teaching." *TESOL Quarterly* 23 (4).

Ramezanzadeh, Akram, and Saeed Rezaei. 2019. "Reconceptualising Authenticity in TESOL: A New Space for Diversity and Inclusion." *TESOL Quarterly* 53 (3): 794–815.

Rammel, Christian, and Oliver Vettori. 2021. "Dealing with the Intangible: Using the Analytical Lens of Hidden Curricula for a Transformative Paradigm of Sustainable Higher Education." *Journal of Education for Sustainable Development* 15 (2): 234–249.

Richards, Jack C., and Theodore S. Rodgers. 2014. *Approaches and Methods in Language Teaching*. Cambridge: Cambridge University Press.

Seth, Deepali. 2020. "Modern Hermeneutical Approach in Developing Language Acquisition Skills with Respect to Private Speech." *Research Journal of English* 5: 209–214.

Sohn, Brian Kelleher, et al. 2017. "Hearing the Voices of Students and Teachers: A Phenomenological Approach to Educational Research." *Qualitative Research in Education* 6 (2).

Uzun, Levent. 2012. "What Is Your Educational Philosophy? Modern and Postmodern Approaches to Foreign Language Education." *Studies in Second Language Learning and Teaching* 2 (3): 333–348.

Valle, Ronald S., Mark King, and Steen Halling. 1989. "An Introduction to Existential-Phenomenological Thought in Psychology." In *Existential-Phenomenological Perspectives in Psychology: Exploring the Breadth of Human Experience*, 3–16. Boston: Springer.

الهوامش والإحالات:

¹ Valle, Ronald S., Mark King, and Steen Halling. "An introduction to existential-phenomenological thought in psychology." *Existential-phenomenological perspectives in psychology: Exploring the breadth of human experience*. Boston, MA: Springer US, 1989. 3-16.

² Lazaraton, Anne. "Quantitative research methods." *Handbook of research in second language teaching and learning*. Routledge, 2005. 209-224.

³ Eddles-Hirsch, Katrina. "Phenomenology and educational research." *International Journal of Advanced Research* 3.8 (2015).

⁴ Bonyadi, A. (2023). "Phenomenology as a research methodology in teaching English as a foreign language". *Asian-Pacific Journal of Second and Foreign Language Education*. 2 (3، الفقرة 2).

⁵ Cilesiz, Sebnem. "Making meaning through lived technological experiences." *Phenomenological inquiry in education*. Routledge, 2020. 148-160.

⁶ Oreshkina, Maria, and Katherine Greenberg. "Teacher-student relationships: The meaning of teachers' experience working with underachieving students." *Journal of Pedagogy* 1.2 (2010): 52.

⁷ Sohn, Brian Kelleher, et al. "Hearing the voices of students and teachers: A phenomenological approach to educational research." *Qualitative Research in Education* 6.2 (2017): p 130.

⁸ Curtis, A., and K. M. Bailey. "Diary Studies. OnCue Journal, 3 (1) 67-85." 2009, pp 70, 215.

⁹ Giorgi, Amedeo. "Concerning the phenomenological methods of Husserl and Heidegger and their application in psychology." *Collection du cirp* 1.1 (2007): 63-78.

¹⁰ Phenomenology as a research methodology in teaching English as a foreign language Research, Published: 10 April 2023, Volume 8, article number 11, (2023).

¹¹ Grondin, Jean. *Introduction to philosophical hermeneutics*. Yale University Press, 1994.

¹² Lueger, Manfred, and Oliver Vettori. "Finding meaning in higher education: A social hermeneutics approach to higher education research." *Theory and method in higher education research II*. Emerald Group Publishing Limited, 2014. 23-42.

¹³ Gadamer, Hans-Georg. "Truth and method. London: Continuum." *New York: Crossroad* (2004).

- ¹⁴ Rammel, Christian, and Oliver Vettori. "Dealing with the intangible: using the analytical lens of hidden curricula for a transformative paradigm of sustainable higher education." *Journal of Education for Sustainable Development* 15.2 (2021): 234-249.
- ¹⁵ Lueger, Manfred, and Oliver Vettori. "Finding meaning in higher education: A social hermeneutics approach to higher education research." *Theory and method in higher education research II*. Emerald Group Publishing Limited, 2014. 23-42.
- ¹⁶ (Chang, *The contribution of a hermeneutic approach to investigate psychological variables in second language acquisition*, p. 3).
- ¹⁷ Chang, Qing. "The contribution of a hermeneutic approach to investigate psychological variables in second language acquisition." *Frontiers in psychology* 13 (2022), p 4.
- ¹⁸ «Hermeneutic phenomenology calls for an interpretation of the data derived from the lived experience of the participants» (Bonyadi, *Phenomenology as a Research Methodology in Teaching English as a Foreign Language*, p. 3) .
- ¹⁹ Dabbagh, A. & Noshadi, M. (2016). "Philosophy-based Language Teaching Approach: A Revolutionary Pathway to Put Applied ELT into Practice". *Journal of Language Teaching and Research*. " (Journal of Language Teaching and Research, 2، الفقرة 1025، ص).
- ²⁰ Seth, Deepali. "Modern hermeneutical approach in developing language acquisition skills with respect to private speech." *Res. J. English* 5 (2020): 209-214.
- ²¹ Stewart, John. "Interpretive listening: An alternative to empathy." *Communication education* 32.4 (1983): 379-391.
- ²² Brown, Gillian. "Twenty-five years of teaching listening comprehension." *English Teaching Forum*. Vol. 25. No. 4. 1987.
- ²³ Ramezanzadeh, Akram, and Saeed Rezaei. "Reconceptualising authenticity in TESOL: A new space for diversity and inclusion." *TESOL Quarterly* 53.3 (2019): 794-815.
- ²⁴ Murphy, John M. "Listening in a second language: Hermeneutics and inner speech." *TESL Canada Journal* (1989): 27-44.
- ²⁵ Rich, Grant J. "The promise of qualitative inquiry for positive psychology: Diversifying methods." *The Journal of Positive Psychology* 12.3 (2017): 220-231.
- ²⁶ Fahim, Mansoor, and Reza Pishghadam. "Postmodernism and English language teaching." *Iranian Journal of Applied Language Studies* 1.2 (2011): pp 31,32,33.
- ²⁷ Fahim, Mansoor, and Reza Pishghadam. "Postmodernism and English language teaching." *Iranian Journal of Applied Language Studies* 1.2 (2011): pp 34, 35, 36/ 27-54.
- ²⁸ Pennycook, Alastair. "The concept of method, interested knowledge, and the politics of language teaching." *TESOL quarterly* 23.4 (1989): pp 589,590,597.
- ²⁹ Richards, Jack C., and Theodore S. Rodgers. *Approaches and methods in language teaching*. Cambridge university press, 2014.
- ³⁰ Stern, Hans Heinrich. *Fundamental concepts of language teaching: Historical and interdisciplinary perspectives on applied linguistic research*. Oxford university press, 1983.
- ³¹ Allwright, Dick. "Exploratory practice: Rethinking practitioner research in language teaching." *Language teaching research* 7.2 (2003) 113-141, pp. 113-141.
- ³² McGroarty, Mary. "Constructive and constructivist challenges for applied linguistics." *Language learning* 48.4 (1998): 591-622. pp. 591-622.
- ³³ Larsen-Freeman, Diane. "Chaos/complexity science and second language acquisition." *Applied linguistics* 18.2 (1997): 141-165. pp. 141-165.